الزوجة الموروثة

للكاتب الروسي استفان بوريانف
للأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

استفان بوريانف من كتاب العقد الأول من القرن العشرين وهو حفيد زوزاديك بي المصور الروسي الشهير الذي عاش أمداً في مقاطعة جنيف (شاتو دو بريه نير) وقد علقت صورته الشهيرة «الجولجثا» في متحف جنيف للتصاوير الحديثة ثم منعت مشاهدتها على الجمهور وهي تمثل الصلب وقت الغروب في ساحة التنفيذ المشهورة في الأنجيل

أما الحفيد استفان فقد حذق اللغات ولا سيما الألمانية والفرنسية وقضى شطراً من شبابه في جبالفيني وايفردون وقرية تونون وتعلم ضروباً من الموسيقى وفنوناً من الأدب ونشر أولى قصصه « هل كانت أمي مجنونة » في مجلة « داشتوت كرويتكلاى » ثم كتب قطعاً مسرحية منها « قطار الحياة السريع » و« الراقصة القمرية » وأحب في العشرين من عمره ايزادورا دنكان الراقصة الأمريكية الشهيرة فذله في حبها وتهتك وتحبب أمداً وتفجرت ينابيع مواهبه فأنتج إنتاجاً غزيراً ، ولكن أدبه أمسى مطبوعاً بطابع الحزن والخبال ، ومصبوغاً بصبغة الألم الدفين ومن أظهر قصصه «الزوجة الموروثة » وفيها من التهكم والحنق المكبوت على الغدر والأنانية واختلاط النبوغ باللوثة أحياناً وامتزاج الحب بالانتقام وجريان دم القتل والفسق في شريان واحد مما يشهد لهذا الكاتب الفذ بالتفوق . هذا ولا يزال هذا الأديب على قيد الحياة في ديفون ، وهي قرية فرنسية ملاصقة لحدود سويسرا

نعم! هو نفسه ذلك المغني العظيم الذي ذاعت شهرته في أنحاء العالم، وطبق صيت عبقريته الخافقين ، فلا كاروزو ، ولا شاليابين ، ولا شاوه . لقد كان صديق صباي ورفيق شبابي ، وأليف فتوتي ويفوعي.. لا أذكر بالدقة اسم القرية التي كانت مسقط رأسه ، ولكنني متأكد من اسم المقاطعة التي ولد فيها وهي بادولي ، وعاصمتها كييف . هل كان يهودياً لا أدري .. لا أظن ذلك ... ربما ! غير أنني أعلم أنه نشأ فقيراً وقاسى من آلام الحاجة ما أورثه مرارة القلب وشدة الحقد على المجتمع . وأذكر أننا كنا ذات يوم في معبد من المعابد فألفينا المصلين قائمين يضرعون لتمثال معبودهم يلتمسون منه قضاء الحاجات ، وكان من بينهم مرضى وذوو عاهات ويائسون تعلقت آمالهم بربهم تعلقاً اتصلت بسعادتهم ، فتأثرت نفسه ، وجال في خاطره أنه لو استطاع أن يرشد هذا الجمع إلى كذب ما يعتقد ، وإلى أن معبوده لا يسمع ولا يعي ، لما فعل ، حرصاً على هذا الأمل ، أن يزول.. وهذه الفكرة ، لا تجول إلا بخاطر وثني أو يهودي. لأن هذين المتعبدين ـ الوثني واليهودي ـ يتمسكان بمعتقداتهما وتقديس معبوداتهما . أما الوثنية فلا أظنها كانت عقيدة... لا أدري كيف أغلب الفكرة على الأخرى ... لقد كان راسكي ذلك المغني العظيم مجنوناً في شبابه . ولعل أشد أنواع الجنون ، جنون الشباب، إذ كان يغتذي من حرارته ، ويستمد غلواءه من غلوائه ، ويأخذ ضرامه من مضطرم عواطفه، ولا تجد شباباً خلواً من رائحة الجنون ، إذ كان الشباب شعبة منه . لقد بدأ جنونه بعد أن قرأ قصة الآباء والأبناء لتورجنيف . نعم ماذا تقول ! هو ذلك الرجل الذي أثر في ذهن رامسكي أكبر الأثر . لأن تورجنيف كان عاقلا وكلامه معقولا . فإن طلاب الجامعات والمدارس الفنية العليا قدمت

للعالم مناظر جديدة مدهشة . فإن فتياناً نشأ وفتيات شواب ، بدأوا يسخرون من الاعتقادات العامة والتقاليد المصطلحة والعادات المحترمة في الحياة الاجتماعية ، وشرعوا يتباحثون في تهذيب المجتمع وتأسيسه على قواعد علمية ، وكان من ذلك أنهم قلبوا النظام القديم حتى في أتفه الأمور وسفسافها . فأما الذكران منهم فأعفوا شعورهم ، وأما الأناث فقصصن فروعهن . فكانت ظواهرهم وأزياؤهم وأحاديثهم عرضة لسخرية الناس وهزئهم ، ولكنهم كانوا يهزأون بذلك ولا يكترثون ، إذ كانوا قد رفعوا أنفسهم عن مستوى ما يسمونه بالرأي العام ، واحتقروا الرسوم والطقوس ، وكانوا لا يعترفون إلا بمذهب العمل الصالح لصالح الجماعة ... وصرحوا .. أي وحق الشباب والجنون - صرحوا بأن الاسكاف المتفوق في صنعته المتقن في حرفته خير من بوشكين أو شكسبير وأعظم قدراً ، لأن الإنسانية أحوج إلى الأحذية منها إلى الشعر ولها أطلب ...

— لا ! لا . ملحداً ... كان رامسكي ملحداً ؟ من يدري ؟ ولكن الذي أعلم عن ثقة ويقين هو أنه كان يكره الفقر ، بعد أن رأى الفقراء ينزلون على جور الأغنياء ، والضعفاء يرضون بظلم الأقوياء . وقد سمعته مرة يقول في حالة أشبه بالعبادة : «ليعسفني الأغنياء على هذه الأرض ، وليرهقني الأقوياء ، فاني لواقف يوم القيامة على باب الجنة ، أحول بينهم وبين عرائسها ومقاصيرها ، شاكياً إلى الله سوء ما لقيت ، رافعاً إليه الظلامات التي عانيت » .. هل هذه صلاة ملحد ... ؟ هل يذكر الملحد يوم القيامة وباب الجنة والإله ... ؟ ولكن رامسكي هذا نفسه قال لي ذات ليلة ، وكنا ندور حول كنيسة نوتردام دي باري ، على مقربة من معرض جثث القتلى والغرقى والمنتحرين : « ألا إن في الاجتراء على السماء والتسخط من مظالمها لترويحاً عظيماً للقلب المفعم بالهم ، المترع باليأس . يحلو لي يا دوشنكا ! أن أخصص كل يوم بضع دقائق للسماء أعربد فيها وأثور ، فأسترجع لذتي ! » . هل أحب ؟ نعم أحب في لوزان امرأة اسمها زينا ، أعني زينا بيد كانت طالبة في الجامعة ، ولكنها من ذلك النوع الذي نشأ في أوائل الجيل ، الطالبات المتزوجات من طلاب زواجاً حراً . وكانت زينا رخيمة الصوت جداً ، وزوجها يتقن التوقيع على الكمان ، والنفخ في الناي ... وكم يوم مشرق بهيج قضاه رامسكي في دار زينا وزوجها ! ؟ وكم من لقاء حلو وحديث لذيذ ! ؟ حتى أصبح رامسكي أعز عزيز في البيت ، وأحب زائر ، وأخلب جليس ؛ وكانت زينا تميل إليه وتحب قربه وتصبو إلى سمره ، حتى لقد كانت توصيه بشراء الفطائر والحلوى لتأكلها في غيبة زوجها كالأطفال . أنا أقول لك دار ... وبيت ... تسامحاً ... أو مبالغة ... لم يكن لهؤلاء الطلاب والمهاجرين الثائرين دور ولا بيوت . إنما كانت غرفاً معدودة مؤثثة بأبسط الأثاث وأفقره . زينتها جمال المرأة ووفرة الكتب وجنون الشباب الذي كان يفتقر كل شيء ولا باقي إلى المستقبل نظرة . كانت الدار مكونة من غرفتين مطلتين على البحيرة ، وعلى محطة السكة الحديد ، جمال في النهار والليل ، وحركة دائمة يقابلها سكون مدهش وجلال متجل في طبيعة الجبال والأمواه وأضواء الأشعة المتلألئة ووجه زينا المشرق ، وصوتها المذب الحنون . فلم يلبث أن أصبح الشاب رامسكي من المتحمسين للموسيقى ...

ولم يكن هو يدرس شيئاً معيناً في جامعة لوزان سوى التوقيع على الماندولين والغناء أحياناً مصاحباً لزينا في أغاريدها قطعاً من موسيقى فاجنر . نحن الروس شعب عجيب غريب الأطوار . لأن الذى تبرع ببناء الجامعة فى لوزان أحد مجانيننا الأغنياء لينال شهرة خاصة على حساب العلم والوطن ، قد تهافتنا عليها ، حتى حسبناها ميراثاً لنا عن آبائنا ، وحتى سنت حكومة مقاطعة (فو) قانونا يحرم التحاقنا بالجامعة ..

كانت الحوادث التى أرويها لك قبل هذا التحريم ولكن راكوفسكي زوج زينا شعر بتعقب البوليس السرى له ، لأنه كان من المشبوهين المتهمين فى مؤامرة تشاركوى سيلو التى قتل فيهـا دى ويت بطل تاميلهوف ، ففر بليل إلى فرسواه على مسافة ميلين أو ثلاثة من جنيف . وهو حين فر لم ينبئ صاحبه الأعز بفراره ، فلا تسل عن حزن رامسكى وابتئاسه ، فقد حرم سلواه الوحيدة ، ولقاء زينا وسمرها وحديثها الرطب الجميل .. وكان هذا الرحيل ممهداً للجفاء بين راكوفسكى ورامسكى ومدعاة للقطيعة والعداء .. على أن راكوفسكى كان رفيقاً بصاحبه ، حدباً عليه مكرماً له ، وكان يهتم بشأنه ويعنى بحاله ، وقد نصح له قائلاً : «تزوج وسافر» ولكن هـذه النصيحة كانت فـكرة أفلاطونية محضاً . لقد كان الزواج بغير حب مستحيلاً . ولم تكن امرأة تملأ قلب رامسكى سوى زينا .. ولهذا فإنه بعد ذلك الفراق المبتسر مرض مرضاً شديداً ، فانتقل إلى جنيف وسكن فى غرفة حقيرة فى شارع كاروج — ذلك الشارع الذى اتخذه المهاجرون الروس مستقراً لهم ، وكانت تلك الغرفة فوق « مغلق حشب » مطلة على جدار قاتم مشـوه بالإعلانات السخيفة ، وكان رامسكى يعيش أخشن العيش ويحيا حياة البؤس ؛ وكنت أنا نفسى أقطن غرفة لا تفضل غرفته فى حى « وابور النور » وكنا نجهز طعامنا التفه بأيدينا « على موقد الكحول » .

وكان رامسكى معرضاً للصـداع ، فإذا انتابه يلقى بنفسه بعد العشاء ملتطماً على المتكأ غير مستصبح بمصباح ، وكان بعض جيرانه يتشاورون فى أمره قائلين : « إنه لفقير ! لا يستطيع أن يشعل ولو شمعة واحدة » أى والله ! حتى جاءوه يوماً بمصباح ، فكان يشكرهم ويشرح لهم أوجاعه وعذابه ، ولكنهم كانوا لا يقولون عنـه إلا « جارنا القديس ! » ولم يعلموا بأن فى نفسه من الألحاد والهرطقة ما يكفى لتكفير جميع القديسين وزندقتهم !

وفى تلك الآونة تلقى دروس الموسيقى فى معهد فيلهارمونى بجوار معبد اليهود ، ذلك السيناجوج العتيق الدميم الذى يحمل فى أعلاه خاتم سليمان ، كما يحمل المذنب القـديم علامة سوابقه . وكان الأستاذ كريستانوف يلقى دروسه متطوعاً متبرعاً ، فلما رأى رامسكى وسمع صوته أيقن أنه عثر بكنز ثمين ، فانقطع لتعليمه وتدريبه ، وسعى حثيثاً حتى ربطت له إدارة المعهد مرتباً ضئيلاً يكفيه بالـكد طعاماً وكساء .. ولـكن أستاذه لم يلبث أن عرّفه إلى أعيان المدينة وهواة الفنون من الطبقة الفنية فـكان رامسكي يمزح فى خيرهم ويحقد عليهم ، ويلعن النظام الذى قضى عليـه بالحاجة إليهم ، وكنت أخفف عنه وطأة الغم والهم زاعماً أن هؤلاء الأغنياء بحاجة إلى جمال صوته . وقد تعرّف بآنسة بولونية تدعى منسكا ، وكانت سيدة حلوة المحضر ، جذابة الحديث ، لها فى الأدب قسط ومن الفن نصيب ، ولقد فرح بها رامسكى فرحاً عظيما فاقترحت عليه وهو فى وحدته تدعوه للاقامة معها فى بيتهـا فى

بولفاردي ماى ، فأذعن . وكانت ترأمه ، كما ترأم الأم وليدها ، وتعطف عليه وتهتم له ، وتريد أن تجد له زوجة تكون برداً على روحه الحزينة الوحيدة وسلاماً ، بل إن رامسكى كتب يقول لها : « لا أ كذبك حاجتي ، أنا لا أريد إلا امرأة ! »..

من كان يظن ؟ هل سلا رامسكى فاتنته زينا وهي على قيد ميلين منه ؟ أم أن الفقر واليأس قطعا نياط قلبه ومحوا ذكريات الحب والعفة من صفحة ذهنه المشتعلة بنار الألم ؟

بيد أن الآنسة منسكا وجدت من توسمت فيها الخير لهذا المفتن الغريب الأطوار ، وهي الآنسة جوزال دربيه والمولودة من أم روسية لوالد سويسرى ، وكانت حسناء فاتنة لم تجز العشرين ؛ فاوقع بصر رامسكى عليها ، حتى توهم كل من رآه أنها نزلت فى حبة فؤاده وأنه راح فى جمالها صباً مدلهاً . ومضى شهر فسألها الزواج ، ولكنها قابلت ذلك بالرفض ، فظل مع ذلك فى قربها شهرين آخرين . ولكن لم يلبثا أن تقاطعا وتهاجرا بغتة ، ولا يعرف أحذق الناس ماذا يجري وراء الستار ، لأن جوزال نفسها والآنسة منسكا سكتتا عن ذلك ، ولم تشرحا لأحد أسرار هذه المأساة المغرية بالحزن والسخرية . ولم يخسر رامسكى هذه الرفيقة الحسناء التى أراد أن يظفر منها بالزوج الخالصة العطوف ، بل خسر من أجلها صداقة أستاذه كريستانوف لأنه اتهمه بالخيانة وارتاب فى سلوكه مع جوزال

* * *

وفى يوم من الأيام اختفى رامسكى فجأة من مقره ، وعلمنا بغتة أنه قتل كرافسكي صديقه القديم وزوج زينا الجميلة . وكنت قد تخرجت محامياً ، وأتيحت لى ممارسة تلك المهنة الشاقة فى مقاطعة جنيف ، ولكن قاضى التحقيق لم يكتف بتبرعى للدفاع عن صاحبي وأمر بانضمامى إلى بام ودمستر وهما محاميان يهوديان لم يشتهرا بشىء سوى القضايا التجارية ودعاوى الإفلاس ؛ وهذا الذى جعلنى أعتقد أن رامسكى يهودى ، وأن اليهود فى جنيف هم الذين اكتتبوا فيما بينهم بأتعاب هذين المدرهين الذين لم يحذقا الدفاع فى قضايا القتل — غير أنى كنت مدفوعاً بصداقتى وحبى وإعجابي ، وذكريات الشباب والألم — أكثر من الدوافع الفنية ، فلم تكن معلوماتى القانونية لتزيد عن معلومات الطالب الحديث العهد بالتخرج من الكلية ينقصنى التدريب وتنقصنى الحنكة ، ومرارة الاختبار فى الحياة ...

فقدمت لقاضى التحقيق عريضة تقتضى استيفاء بعض نقاط التحقيق ، وقد استهللتها قائلاً : « إن حادثة القتل التى وقعت فى جنيف ، نمرة ١٩ شارع فيوجيراندبيه ، ليست من السهولة كما يبدو للنظر السطحى المتسرع ، ليست من تلك الجرائم العادية التى تقود إلى السلاسل والأغلال ، وتسوق الجانى إلى الاشتمال بألبسة الجرم ، وسترة القاتل ، بل إن في مصرع رالوفسكى المنسوب إلى صديقه رامسكى لمنصراً رهيباً أرهب وأغرب مما يظن الباحث السطحى أو المراقب المستهتر » وكأنى بهذه المقدمة لعريضتى قد فتحت أفقاً جديداً لقاضى التحقيق موسيو بوا تليفان ، ذلك الفاحص المدقق المرعب ، الذى لم يطبق قواعد الرحمة يوماً على أحد ممن أوقعهم سوء الطالع فى مخالبه . وكانت تلك العريضة مقدمه لاعتراف رامسكى الذى قال للقاضى :

« إن الرجل الذى قتلته أى ديمترى رالوفسكى ، كان رفيقى فى المدرسة وقرينى فى الجندية ، وابن

قريتي ، وإن كانت وجهة درسي غير وجهته ، فهو رياضي وأنا موسيقار . ومحال أن يقال عني أني كنت أبغضه ، لأنه كان في نظري بطلاً ، وكيف لا يكون بطلاً وهو المتهم في مؤامرة تشار كوي سيلو التي قضت على حياة دي ويت أحد أبطال تاميلهوف ؟ لقد قيل لي من أقرب الناس إليه أنه متقلب في آرائه وعواطفه ومشاعره ، وإنه شديد التطرف في أفكاره المتحولة المتغيرة ، فكانت زوجته وأصدقاؤه يعتبرونه تارة طفلا وتارة امرأة ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحبونه ويغفرون له هناته وهفواته

وكان راكوفسكي يوم مقتله في الواحدة والثلاثين من عمره ، وكان متزوجاً من هذه السيدة زينابيد التي ادعوها توددا — زينا — وإذ كنت رأيتها يا حضرة القاضي وهي أرمل محزونة فما أنت بقادر على أن تعلم كيف كانت قبل القتل . إنها فقدت كثيراً . هذه وجنتها قد ذبلت ، وهذا خدها الأسيل قد أظلم ، وبشرتها الناعمة قد ظهر فيها التخدد والغضون ، وعينها لا تشرق ولا تبرق كما كانت بالأمس ، ولم تعد تضحك ، وكانت أبداً مومضة ضاحكة . وقد رأيتها عرضاً في « ساحة الخطى المفقودة (١) » فكدت أصعق للتغير الذى طرأ عليها . إنها لم تستطع أن ترمقني إلا بلحظة ساخطة متوحشة . واهاً للمسكينة !

لقد غضبت زينا يوماً على زوجها البطل ، بطل مؤامرة تسار كوى سيلو ، وفرت من بيته والتجأت إلى غرفتي الحقيرة بشارع كاروج ، وكنت أعلم أن زواجهما ارتباط عرفي لا عقد شرعي ، وأنا نفسي من دعاة هذا الارتباط العرفي ، فاحترمت أنوثتها ووحدتها ، وتركت لها فراشي ونمت على مقعد عتيق في دورة المياه . فلما رأت عفتي واحترامي لها أكبرتني ، فسألتها عن نيتها في العودة إلى دار صاحبها فأقسمت بأنها لن تعود إليه ، فانتهزت هذه الفرصة فسألتها يدها على نفس طريقة عشرتها لراكوفسكي ، فأعرضت عني وجعلت حرارة الرفض نصيبي ... ثم ضحكت ضحكا طويلاً عالياً وأنا الرجل القوى العنيد الذى لم يسكب عبرة واحدة ، ولا ذرفت يوماً دمعة منحدرة ، ولم أعرف الرعب ولا الخوف ، وقفت أمامها مرتجفاً مرتمداً ... ولكنها عادت بعد ضحكتها فاعتذرت قائلة — أتوسل إليك أن تصفح — فابتسمت أنا ، ولو استطعت الآن أن أصفح عن ضحكها ، فما أنا بمستطيع أن أصفح لنفسي عن تلك الابتسامة . إنك يا سيدى القاضي لم تجد أى باعث على ارتكاب الجريمة فهل تجد اليوم باعثاً ؟ هل تزعم أنه الغيرة ؟ إن الغيرة من شأن الطبيعة الحادة ، والمزاج المستعر النارى ، وليست من شأن رجل هادئ المزاج رصين العقل ، بارد العاطفة كشأني . إذن فهل يكون الباعث هو الانتقام ؟ هذا أقرب إلى الحق وإن كانت إلا كلمة قديمة لإحساس جديد وشعور غريب مجهول . لا بد لي إن أقول أن زينا خيبت أملي وفضحتني أمام نفسي مرة أخرى ، كنت أعتقد أنها بعودتها إلى بيت ديمتري راكوفسكي — بطل مؤامرة تساركوي سيلو — لن تجد الهناء ساعة واحدة ، وأنها ستندم على رفضها مطلبي . ولهذا السبب اجتهدت في تعجيل صلحها . ولا تنس أني لم أحاول السطو على سعادة أسرة ، فإنها لم تكن قد رزقت منه بنسل . ولكن ديمتري قد راح بها صباً ، فأى فرق بين صب وصب ما دام الأمر خالياً

(١) ساحة الخطى المفقودة Pas Perdus فناء المحكمة لأن الناس يروحون ويجيئون في انتظار مجالس القضاء لعل هذا أصل التسمية والله أعلم

من الذرية والعقد الشرعي في الحالتين ؟ ألا تراني أكثر جمالاً وشباباً وأقدر على فهمها وإدراك عواطفها ؟ غاية ما فى الأمر ، لماها لم تجدنى مطواعاً أوخروفاً كالآخر . فهي لم ترفضني لأنها تبغضني ، بل لأنها لا تستطيع أن تركبني بغير سرج ولا لجام كما ركبت الآخر . فلما كنت في جنيف في المرة الأخيرة وكنت زائراً بريئاً لا أفكر فى شيء من الماضى ، وذلك قبل مقتله بشهر جبهني قائلا : « إنى مدين لك بهذه السعادة ! ثم التفت إلى زوجته وسألها : أليس كذلك يازوجتى العزيزة ؟ وما أكثر التجاء المتحللين من شرائط الزواج الشرعى إلى هذا الوصف ، كأنهم يطمئنون به إلى تسوية مركزهم أمام أنفسهم . ما أعظم أثر التقاليد فى العقل البشرى حتى لدى الذين تحرروا منهـا أو زعموا ذلك ... فنظرت إليه ثم تمتمت (نعم !) وضحكت عيناها فضحكت ، وضحكنا جميعا وديمترى يضمها إلى صدره ، وكانا لا يستحييان من شيء أمامى . ثم قال ديمترى نعم ! إنك يا صديقي قد خسرت الصيد الذى كنت تبغى بعد أن أحكمت فخك !

هذه النكتة الباردة المؤلمة الثقيلة قصرت من حياته أسبوعاً كاملا . كنت أري وجهها المبتسم وعيناها الباهر المشرق الناعم فكنت أقول لنفسى : أنا سبب كل هـذا ! أردت أن أرسفها فى أغلال زوج مغفل بعد أن أفلتت من قيوده ، لـكي ترى بنفسها مبلغ خسارتها يوم رفضتني فاذا بى أراني قد أعدتها إلى الرجل الذى أحبت . لقد بدا لى موقفي غريباً ، كانت زينا تحب حديثي ومغازلتى فاذا انتهينا من الحديث والغزل تركتني فى رفق مبتهجة إلى ذراعى ذلك الوغد ديمترى بطل مؤامرة تسار كوى شيلو ! فأردت أن أنزل بزينا العذاب والألم ففكرت فى قتل زوجها ، وقد ألفت هذه الفـكرة حتى لـكأنها ولدت معى . ولـكني أردت أن تعلم زينا أننى أنا الذى قتلت زوجها وأريد أيضاً أن أتجنب عقوبة القانون ، وإن كان عقابى لن يغنى زينا عن نكبتها شيئاً . وقد زرتهما المرة الأخيرة وكان ذلك قبل العشاء ، ومضينا نخوض فى حديث عادى وكنت أتكلم بدقة وإيجاز ، وجعلت عيني تستقر على عقرب الساعة وقد عزمت على أنى إذ تدق السادسة يجب أن أكون قاتلاً . حتى إذا بقى على الميعاد سبع دقائق نهض ديمترى عن المتكأ متثاقلا متبلداً وغادر الحجرة وهو يقول : سأعود بعد هنيهة . وهنا أخذت زينا ترتعش وتمايل حتى أوشكت أن تقع كأنما صعقتها تلك القوة المتوحشة المفترسـة المرعبة التى كانت تطل من عيني ؛ ثم وثبت إلى جانب زوجها وكانـ فى تلك الآونة قد رجع وتمتمت (ديمترى ديمترى ... إنه ...) فقال : ماذا تريدين ؟ فقلت فى صوت خشن مخيف إنها تعتقد أننى أريد أن أقتلك بهذا التمثال النحاسى . ورحت أرفع فى سكوت وخفة وصمت ، التمثال وتقدمت رويداً نحو ديمترى فشخص فيَّ ببصره مصفراً مذهولاً مبهوتاً وهو يكرر هذه الـكلمات : « هى تعتقد » ورفعت ذراعى فى رفق وأنا أشير بالتمثال وألوح ، وبدأ ديمتري فى مثل رفقى يرفع ذراعه وعيناه لم تغادرا وجهى فصحت به فى غلظة أن قف ! وعنـد ذلك تراخت ذراعاه وبقيت عيناه مستقرتين عليّ ، وبدت على شفتيه ابتسامة ضعيفة ذابلة وصرخت زينا صراخاً مرعباً مزعجاً ، ولـكن الوقت قد أزف فأهويت على رأس صاحبي أضربه فوق جبهته وقد أنبأنى الطبيب أن جمجمة القتيل مفتتة مبددة ، مع أننى ضربت ديمترى ثلاث ضربات ليس غير واحدة

إذ كان واقفاً ، واثنتين وهو مطروح على أرض الغرفة . لقد كانت الضربات الثلاث شديدة قاسية ولكنها ثلاث لا تزيد » مكسيم رامسكى

لقد كان حلماً مروعاً ، انتقل فى طرفة عين من عالم الخيال ، إلى الحقيقة ، وتنظر القضاة بعين العلم إلى رامسكى ، وخشوا أن يوقعوا به العقاب الذى يستحقه القتلة ، لئلا يكون معدوم المسؤولية فيقعوا فى جهالة تفسد شهرة العدل . لقد وجد ديمترى راكوفسكى مقتولاً حقاً ، ولكن زينا زوجته وهى شاهدة الرؤية الوحيدة قالت إنه سقط من أعلى الدرج فجرح رأسه بحديد الدربزين ثم اصطدم فى حجر السلم ، ولم يكن رامسكى حاضراً ، ولكنه عند ما علم بمصرع صاحبه توهم أنه قاتله ، وهيأ له الخيال رسم هذه الصورة . وهذا الاعتراف الطويل البليغ ليس إلا وليد تلك المعقولية العليلة . وقد عقها وهو متوهم أنه يدخل السرور على نفس القاضى بواتلفان ، الذى بدأ باستجواب الشهود بعد اعتراف المتهم فكذبوه جميعاً وفى مقدمتهم الأرمل المحزونة زينا . وقال الدكتوردراى : « إن فرحه بخلاص المرأة التى كان يحبها من ربقة الزواج السابق ، وتأكده أنها سوف تكون له بلا مزاحم ، أذهب عقله بغتة . هذا نوع من الجنون المؤقت العارض ويزول حتما إن اطمأن المريض إلى نتيجة الحادث الذى أفقده صوابه » ولا يكون الاطمئنان المذكور إلا بزواجه زينا ولو زواجاً من ذلك النوع الذى يتم فيه التفاهم بالاتفاق العرفى ، ما دامت هي لم تكن تعرف سواه . ولكن من ذا الذى يشفع عند أرمل محزونة لم يمض على فقد بعلها بحادث مروع سوى بضعة أيام بحجة الحب الذى ملك على العرس لبسه وأفقده صوابه حتى تخيل أنه قاتل الزوج الهالك

لقد كان كريستانوف الموسيقار النابغ أول أساتيذ رامسكى ، لا يزال مقيماً فى جنيف . ولكنه تحول عن بيته الأول بجوار معهد الموسيقي ، إلى بيت جديد فى خط سان چورج ، فقصدت إليه وشرحت له كل ماوقع لصاحبي ، فأبرز لى قصاصات من جورنال دى جنيف و « تريبون » وغيرهما فيها بعض أخبار تلميذه القديم وقال لى : « لو أسلم هذا الأحمق حنجرته وأذنيه إلىّ ، لكان الآن من كواكب اسكالاف ميلانو وأوبراهاوس فى نيويورك ، ولكن ذكورته كانت أقوى من ميوله إلى الشهرة ، وعلى كل حال فإن الذكورة اليقظة دليل على المواهب وأرى نظرى فيه لم يخب ... ولكن يا سيدى لم أعلم بعد سبب تشرفى بزيارتك »

قلت : أن تقنع مدام راكوفسكي بالزواج من صديقنا الذى يكاد يجن حباً بها

قال : آه زينا ؟ ولكن ألا تعلم أن هذا المجنون رامسكى كان اتهمنى بمغازلة خطيبته الأولى التى كانت عرفته إليها الآنسة منسكا البولونية ... وكانت تدعى الآنسة جوزال ديربيه

— إنه غيور فظيع . وحسناً فعل الدهر بالتفريق بينهما ، فقد كانت البنت تتقن الغناء من طبقة سوبرانو ، ولو وقعت لى لجعلتها تغنى سالوميه وتوسكاولوسى دي لامرمور ... والجمع بين نوابغ الموسيقى من رابع المستحيلات

وكان الأستاذ كريستانوف قد لبس معطفه وتناول قبعته وعصاه ، واستقللنا سيارته الفخمة التى أهداها إليه راجا كوترالا بعد أن علم محظيته (ممتاز بيجوم) أسرار الغناء الإفرنجى . وبعد دقائق معدودة كنا فى المصحة التى أعدت إحدى غرفها فى شيهان دى لاروزريه فى حى شامبل لتمريض العاشق

المفتون ... وما أن وقعت عين كريستانوف على رامسكى حتى صرخ قائلاً : « لا ! لا لا لا ! رارا رى رى صو ! سالو مون دىرنييه مانان » فرفع المحموم بالحب والغناء عقيرته بتلك الأنشودة الخالدة المنتزعة من إحدى أوبرات فاجنر يردد ألفاظها وألحانها وأنغامها كأنه مجموعة من البلابل تغرد فى دوحة فى أحلى أوقات الربيع

وكانت زينا لا تزال تقطن البيت الذى قضى فيه زوجها نحبه ، فزارها الأستاذ وعزاها واستدرجها حتى روت له خبر رامسكى وكيف أنه يتهم نفسه باطلاً بقتل زوجها ، لأنه كان يحبها ويطمع فى الاقتران بها ، فلما أخفق فى أمله اختل ميزان عقله ؛ فأشفق كريستانوف على هذا الدنف المضنى ، ولما تمض ساعة على افتراقها ، وسأل زينا عن سبب إعراضها عنه فقالت : لقد كنت سعيدة السعادة كلها . وأما ديمترى (أى المرحوم بعلها) فلم يكن حبه لى فى أعشار قلبه ، لأنه كان يعجز عن أى حب عميق (فتنفس كريستانوف تفاؤلاً لأن بداية ذكر مساوئ الزوج المتوفى تدل على نهاية طيبة لصالح العاشق الذى على قيد الحياة) وكان القمار ملهاته يؤثره على مناعم البيت ومباهج الزواج ، ولكننى لم أكن أحب سواه ، لأنه كان أبداً متوعك الصحة ينتابه الصداع وينهكه الأرق . وكنت أرى فى تمريضه والعناية برغباته أعظم السعادة وأكبر النعمة وهذا الضعف ناشئ من حاجتى للأمومة

فقال كريستانوف : أى نعم ! المرأة يوم تحب تفقد شخصيتها والحمد لله ، لقد عوضك يازينا مريضاً عريض وعليلاً بعليل ! أملك لم تمطق على رامسكى لأنه كان قويًا صحيح البدن معافى ... فلا تجدينه فى أقل حاجة إلى عنايتك . أما الآن فهو فى حال من تأصل الداء وتفاقم العلة تدعو إلى بروز رحمتك من خدر الكمد والحزن على زوجك الراحل لتتجلى فى حلل الجمال والجلال بالإحسان إلى هذا العليل الملهوف » فاغرورقت عين زينا بالدموع وسألت :

— أين هو الآن ؟ فأشار إليها كريستانوف بالاستعداد لاتباعه . فلما بلغنا المصحة حيث كان الدكتور إدوار كلاباريد يدرس حالته النفسية ليعنى بصحته على أساس علمى ووقع نظرنا عليه وجدناه شاحب اللون مخيفاً مرعباً ، وكان جبينه غارقاً فى لجة من العرق البارد . فلما أخذ بصره محبوبته المرجوة ضحك وفتح ذراعيه وقال لها : تعالى فقبليني. فضحكت زينا ضحكة بلهاء وظلت جامدة فى مكانها ، فقال رامسكى : تعالى ! فارتجفت ، ثم احمر وجهها وبدت فى عينيها أمارات العطف وأقبلت نحوه ، فاتكأت على الخوان فى مظهر الذليل الخاضع المتوسل ثم ألقت بنفسها بين ذراعيه وهى تبكى بكاء الفرح

فنظر كريستانوف إلينا وقال : لم يعد لنا مكان هنا ، فقد اتصل العاشقان ، ولم يعد للشاب مكان فى هذه المصحة فقد شفى بوفاة زوج المرأة التى كان يحبها ...

وبعد ربع ساعة خرجت من نمرة ٢٤ شيمان دى لاروزريه بجى شاميل سيارتان تسيران ببطء ؛ الأولى تقل رامسكى وخطيبته التى لم يمض على ترملها عشرة أيام ، وفى الثانية الأستاذ كريستانوف الموسيقار أستاذ رامسكى وطبيبه الذى تعهد بإعداده لغناء فاوست ولوهنجرين بعد ستة أشهر ، وقد بر بوعده . هكذا الحياة ... وهكذا الحياة ...

محمد لطفى جمعة